مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ٢، صيف ١٤٣٩هـ
صفحة ٢٦٣ - ٢٨٤

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

دور المشاعر النفسيّة في التطوّر الدلالي للألفاظ

علي باقر طاهري نيا[١]، ابوبكر محمودي[٢]*

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران
٢. طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/١١/٢١ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٨/٥)

الملخّص

تشبه اللّغة في نموّها كائنا حيّا، رغم أن نموّها قد يبدو بطيئا في بعض الأحايين إلا أنه ليس هامدا بأيّة حال من الأحوال، فاللّغة بجميع عناصرها من الأصوات والأبنية والنحو والألفاظ معرّضة للتطوّر من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، إلاأن سرعة هذا التغيير هي التي تختلف من فترة إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر. يعدُّ التطوّر الدلاليّ جانبا من جوانب التطوّر اللغويّ، وميدانه الأساس ألفاظ اللّغة. تسلّط هذه الدراسة الضوء على أحد أهمّ أسباب التطوّر الدلالي للألفاظ، وهي المشاعر النفسيّة، وعلى دورها الملحوظ في ذاك التطوّر عبر القرون، باتخاذها المنهج الوصفي- التاريخي نبراسا في طريقها، وذلك بعد تحديد دلالة المفردات خلال العصور القديمة، ثم مقارنتها بدلالتها الحديثة اليوميّة لاستخراج وجوه التطوّر في الدلالات، وحصل الباحثان أخيرا على النتيجة أن للمشاعر النفسيّة المتمثّلة في اللّامساس (التابو) والتفاؤل والمبالغة والإعجاب بالألفاظ المستعارة من اللغات الأجنبية، يدا طولى في تغيير دلالة الألفاظ وتطوّرها، ويلعب عنصر اللامساس لكثرته وشموله الدور الرئيس في التطوّر الدلاليّ بين تلك المظاهر.

الكلمات الرئيسة

التطوّر الدلاليّ للألفاظ، التفاؤل، اللّامساس، المبالغة، المشاعر النفسيّة.

* الكاتب المسؤول
Email: Aboo.mahmoodi@yahoo.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

تعدُّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة تستمدّ حياتها من أحضان المجتمع، وهي تتطوّر بفعل الزمن مثلما تتطوّر بقيّة الكائنات الحيّة وتخضع لما يخضع له الكائن الحيّ في نشأته وتطوّره. فإذا تغيّر المجتمع وتطوّر لانعكس هذا التغيّر وذاك التطوّر على اللّغة سلبا وإيجابا، إلّا أن سرعة التطوّر ونتائجه تختلف من وقت لوقت ومن زمان لزمان. فأين حياة الأمم القديمة من حياتنا الراهنة؟ أين أدواتهم ومواصلاتهم وبيوتهم وملابسهم من أدواتنا ووسائط نقلنا وبيوتنا وملابسنا؟ ولعلّ ما لم تتطوّر منذ تلك العصور القديمة إلى أيامنا، مظاهر الطبيعة والقمر والأشجار والنجوم والأرض...، وحتى لو تأمّلنا في تلك المظاهر لوجدنا فيها تغييرا نسبيّا، فناهيك عن غيرها من المظاهر التي تتّصل بحياة الإنسان من قريب كلغته وملبسه ومطعمه ومشربه و...؟ إن اللّغة الإنسانية كأهمّ مظهر من مظاهر الحياة الإنسانيّة لم تكن بمعزل عن هذا التطوّر المتنامي، ومن هذا المنطلق فقد وجد الإنسان نفسه مضطرّا أن يواكب هذا التطوّر في الألفاظ المعبَّرة عن كل ما هو جديد وحديث.

كانت الدلالة من أهمّ ما شغلت فكر الإنسان عبر العصور لكونها وسيلةً للتواصل بين أبناء اللّغات، كما هي اليوم من أهمّ أركان علم اللّغة الحديث بأضلعه الأربعة المتمثّلة في علم الأصوات وعلم الصرف وعلم النحو وعلم الدلالة. فقد كان البحث في مشكلة الدلالة وتطوّر الألفاظ الدلاليّ قديمٌ قِدَمَ اللّغة نفسها، وتناولها الهنود واليونان قَبْلَ الآخرين، وسبر المسلمون كذلك أغوارها منذ عصورهم القديمة إلى اليوم، والكلّ ولج في أبوابها وفقا لزاويته الخاصة ورؤيته المحدّدة، فللأصوليّ رؤيته وللبلاغيّ رؤيته وللنحويّ والفيلسوف واللغويّ رؤيتهم...

للتطوّر الدلاليّ أسبابٌ وعوامل، قد تكون اجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة وعاطفيّة...، فلكلّ منها دوره وأثره في حركيّة اللّغة وديناميّتها، فلا يخفي أثر الأحداث الكبيرة أو ظهور الأديان الجديدة أو الحروب الطاحنة أو الغزو الفكريّ والثقافي وغيرها على اللّغة، فالإسلام على سبيل المثال بعد أن طلع نجمه أتى بدلالات لم يكن للعرب عهد بها، فمثلا لفظة الزكاة كانت تعني في العصر الجاهليّ النمو والزيادة، إلا أنَّها في القرآن الكريم تحمل ملامح جديدة غير ما كانت عليها في ذلك العصر، إذ تفيد تلك المال الذي يجب دفعه للفقراء والمساكين أو للحكومة الإسلاميّة، فهذا التغيير لاشك منوط بالعامل التاريخيّ والاجتماعيّ مثلا، وكذلك جمع غفير من المفردات الأخرى التي ظهرت إثر العوامل المختلفة كظهور لفظ الخارجيّ أو

Archive of SID

www.SID.ir

المارقيّ في عصر الإمام علي عليه السلام ... فهذا شأن الأسباب التاريخيّة والإجتماعيّة والثقافيّة وقد سُلِّطَ عليها الضوء في مختلف الكتب والمقالات، إلا أنّ دور الأسباب النفسيّة أو الوجدانيّة غاب عن بحوث الباحثين أو كاد، وهي أسباب تؤثّر على اللّغة وديناميّتها بشكل من الأشكال. تحاول هذه الدراسة أن تزيل الستار عن دور المشاعر النفسيّة في التطوّر الدلاليّ على مستوى الألفاظ، على أمل أن تملأ الدراسة فجوة غياب البحوث والدراسات المعمّقة في هذا الميدان، بإجابتها عن السؤالَيْنِ التاليَيْن:

- ما هي المشاعر النفسيّة؟
- وما هو دورها في تطوّر الألفاظ الدلاليّ؟

أتت المقالة في قسمين، قسم نظريّ وهو التعريف بالتطوّر الدلاليّ، والمشاعر النفسيّة، وقسم تطبيقيّ وهو تجسيد دور المشاعر النفسيّة المتمثّلة في التابو والمبالغة والتفاؤل والإعجاب بالألفاظ الجديدة، في التطوّر الدلاليّ للألفاظ.

خلفيّة البحث والدراسات السابقة:

فقد صُنِّف العديد من الكتب والمقالات في مجال تطوّر الألفاظ الدلاليّ، غير أن الملاحظ في تلك الأعمال والمصنّفات أنها لم تتناول المشاعر النفسيّة ودورها في التطوّر الدلاليّ للألفاظ بتمام جوانبها وزواياها، وكأن هذا الموضوع لم يأْلُ اهتمام الدارسين والألسنيين بالقدر الكافي. فمعظم الدراسات في هذا المجال اكتفت باشارات عابرة وجيزة. ها هو عمر مختار في كتابه "علم الدلالة" لم يتناول هذه المسألة إلا في صفحة واحدة دون تفصيل ولاشرح مبسَّط، والحكاية هي نفسها في كتاب رمضان عبدالتّواب بعنوان: "التطوّر اللّغويّ، مظاهره وعلله وقوانينه" وكتاب "دراسات في علم اللّغة" لكمال بشر، و"علم الدّلالة العربيّ، النظريّة والتطبيق" لفايز داية وكذلك "علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي" لمنقور عبدالجليل وفي غيرها من الكتب المدوّنة وحتى المترجمة عن الإنكليزية بهذا المضمار، وهذا واضح كذلك في كتب المترجمة في علم الدّلالة إلى اللّغة الفارسيّة كذلك، كما في أعمال كورش صفوي المترجمة، منها: "درآمدي بر معنى شناسي" لجون ليونز. وهذا -كما قلنا- لاينفي وجود إشارات خاطفة عن هذه المسألة في تلك الكتب أو غيرها، وهي بطبيعة الحال مبثوثة هنا وهناك، ولا تغنينا عن مزيد الدراسة في هذا المجال. ولعل كتابَيْ "دور الكلمة في اللغة " لأولمان بترجمة عبدالمجيد الماشطة و"دلالة الألفاظ" لإبراهيم أنيس، أكثر الكتب

Archive of SID

www.SID.ir

احتواء لدور المشاعر النفسيّة في التطوّر الدلاليّ. أما الأول فيشتمل على عدد من الأمثلة عن اللّغة الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانية فيما يخصّ بعض المشاعر النفسيّة، والملاحظ أن الكتاب لم يتناول كافّة أنواع الجوانب النفسيّة، بل غفل عن بعضها كالتفاؤل والتشاؤم والمبالغة. والثاني "دلالة الألفاظ" رغم أن الكاتب أشار فيه إلى أمثلة قيّمة بهذا الصدد، ولكنّه لم يستوعب جميع الوجوه والأشكال. إن أهم ما كتب في هذا المجال كتاب عالم النفس زيغموند فرويد تحت عنوان "الطوطم والتابو" بترجمة: بوعلي ياسين، والكتاب كما يتّضح من عنوانه مصنّف في مجال علم النفس قبل علم اللّغة، رغم أن دراسات الكاتب فيها تتّجه نحو الدرسات اللغويّة، ولكنّها في نهاية المطاف فارغة عن ذكر الأمثلة والشواهد. ثم إن الكتاب مهما كان قيّمًا ونافعا اكتفى بتسليط الضوء على دور التابو في اللّغة الألمانيّة والإنجليزيّة فحسب، مما لايجعل دراستنا مكرورة في اللّغة العربيّة بشكل من الأشكال.

وقد كتب سالم الخمّاش مقالة تحمل عنوان "أسباب التغيّر الدلاليّ" وهي دراسة وجيزة لاتشمل كافّة أسباب التطوّر الدلاليّ والمشاعر النفسيّة على وجه التحديد. وقد نشر فاضل عبود في مجلة مركز بابل للدراسات الحضاريّة والتاريخيّة بحثا معنونا بـ:"مظاهر التطوّر الدلاليّ في كتب لحن العامّة"، وتناول فيه مفهوم التطوّر الدّلاليّ ومظاهره، وهو قسَّمَها إلى ثلاث وهي التخصيص والتعميم وتغيّر مجال الدلالة أو انتقال الدلالة، والملاحظ أنه لم يتناول أسباب التغيّر الدلالي إلا بالإقتضاب، وذكر منها اختلاف لهجات القبائل، وسوء الفهم (القياس الخاطئ)، وتطوّر الحياة وتقدمها، واكتفى بذكر الجوانب النفسيّة التي نريد أن نضع عليها النور في سطرين دون مثال ولا تحليل!!

وعلى هذا الأساس لم يحصل الباحثان رغم بحثهما المعمّق في الكتب والرسائل، ناهيك عن المقالات والكتيِّبات، على دراسة مستقلّة كانت قد تناولت أو تطرّقت إلى دور المشاعر النفسيّة في التطوّر الدلاليّ على حِدَة، رغم أن هناك ـ كما ألمحنا ـ كتب ومقالات مرَّت على المسألة مرورا خاطفا، مما لايغنينا عن الدراسة المفصليّة المعمّقة في هذا الميدان.

منهجيّة البحث وأهميّته:

تعدّ مسألة التطوّر الدلاليّ من المباحث التي اتّخذ المنهج الوصفيّ– التاريخيّ أسلوبا في الدراسة والتحليل. حيث أن الباحثَيْنِ يبحثان عن دلالات ألفاظ اللّغة قديما وحديثا، سواء كانت اللّغة هي اللّغة العربيّة المعاصرة المستعملة في الإعلام والتلفاز، أم اللّغة العربيّة

Archive of SID

www.SID.ir

القديمة كلغة العصر الجاهليّ والإسلاميّ مثلاً، ولايمكن استكشاف التطوّر أو التغيّر الدلاليّ إلّا عند مقارنة الدَّلالة القديمة مع الدَّلالة الحديثة.

وحسبنا هذا الموضوع أهميّة أن العلماء والألسنيين تناولوه منذ عصور قديمة إلى أيامنا الراهنة ولاتزال الجهود تصبُّ في هذا الميدان باستمرار. وكفى لأهميّة الدراسة تحذير أستاذ الأدب الإنكليزيّ طلابه الذين يدرسون أدب شكسبير، فقال لهم: «إنني لا أخشى عليكم في أدب شكسبير من تلك الألفاظ الغريبة التي لم تصادفوها في نصوص أخرى، أو لم تسمعوا بها من قبل، ولكني أخشى عليكم من تلك الألفاظ التي لا تزال شائعة بصورتها القديمة في الأدب الانجليزيّ والتي يخطر في أذهانكم لأوّل وهلة أن دلالتها مألوفة لكم جميعا، فهي محطُّ الزلل والخطأ؛ لأن كثيرا منها قد تطوّرت دلالته، وتغيّرت مع الزمن» (أنيس، ١٩٨٤: ٩٣).

التطوّر الدلالي (التغيُّر الدلالي)

إن "التطوّر اللغويّ" بصفة عامّة هو: تغيير يطرأ على اللّغة، سواء من ناحية الصوت أو الدلالة، أو من ناحية النحو أو البنية الصرفيّة، إذن، هناك تطوّرٌ نحْويّ، وصرْفيّ، وصوْتيّ، ودلاليّ. إن التطوّر اللغويّ قلّما يلحق بالجمل والعبارات والنحو والأصوات، ولكنه ليس حدوثه بالأمر المحال، وإنما يلحق في كثير من الأحايين بمعاني الكلمات ومداليلها أكثر من بقيّة أجزاء اللّغة التي تكون شبه ثابتة إلى حدٍّ بعيد، وذلك لأن الألفاظ معرّضة للتغيّر والتبديل بنفسها أو بدلالتها وكأنها ضيوف تأتي وتترك أثرها في عالم اللغة، ثم يحلُّ محلها الجديد من نفسها (عبد التواب، ١٩٩٠: ٩). تم تعريف المعنى (الدلالة) بأنّه "علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول" (استيفن، دون تا: ١٥٢) ويقع التطوّر الدلالي في اللّغة إذا وُجِد أيُّ تغيير في هذه العلاقة، فالتطوّر الدلاليّ يحدث إذا حدث تغييرٌ في علاقة اللفظ والمدلول. والملاحظ بهذا الصدد أن شأن اللّغة فيما يخصّ التطوّر سواء في دلالتها أم في غيرها من الأجزاء لايكون دائما بمعنى التقدُّم والإرتقاء، ومن ثم فإنَّ البحث في أطوار اللّغة لايفيد الحكم دوما بالحسن على الطور المتأخّر في الزمن وبالقبح على المتقدِّم، فإن البحث العلميّ يتجرَّد عن مثل هذا الحكم، وإنّما يدرس واقعا ويصوِّر حقيقة محسوسة ويحاول تحليلها وتعليلها دون أن يحكم عليها بالصّحة والفساد (مبارك، دون تا: ٣٤).

فالتطوّر كما عرّفناه تغيير في علاقة اللفظ والمدلول وهذا التغيير في العلاقة "إما أن يكون من إضافة مدلول جديد إلى كلمة قديمة وإما من إضافة كلمة جديدة إلى مدلول قديم"

Archive of SID

www.SID.ir

(ينظر: استيفن، دون تا: ١٥٢). وقد اطلق العلماء والكتاب والنقاد منذ القدم عنان الكلام في موضوع اللفظ والمعنى وحتى موضوع التطور الدلالي والذي يطرأ على كل منهما معا (ينظر: طاهري نيا وآخرون، ١٤٣٨: ٦٧٦).

والصورة الأولى من صور التطوّر الدلالي ـ وهو ثبوت اللفظ وتطوّر دلالته ـ قد استحوذت على اهتمام الدارسين، ففي هذا الضرب من التطور يتمّ الإعتماد على الألفاظ القديمة المندثرة ويُنفخ فيها الحياة من جديد بإعطاء دلالات جديده لها، على غرار ما نلاحظ عن جمع غفير من الألفاظ القديمة التي ظهرت بدلالات جديدة، كألفاظ السيارة والقطار و...، فمن منّا الآن إذا سمع كلمة السيّارة يخطر بباله صورة القافلة في الصحراء؟ أو إذا سمع كلمة القطار يتبادر إلى ذهنه حركة جماعة الإبل واحدة تلو الأخرى على نسق معين؟ ففي هذا الضرب من التطوّر الدلاليّ تندثر الدَّلالة القديمة وتحلُّ محلَّها دلالة جديدة نابعة عن حاجة المجتمع اللغويّ.

وقد تتطوّر دلالة كلمة من الكلمات وتبقى الدلالة القديمة أو تعيش مع الدلالة الحديثة، فتستمران في حياتهما خلال قرون وأزمان، ومن ثم إذا تحدَّثنا عن التطوّر الدّلاليّ في هذا البحث، لايعني ذلك أن الدّلالة السابقة للكلمة التي طرأت عليها التطوّر، تصبح مهجورة متروكة وتتسنّم الدلالة الجديدة على الكرسي، كلا، بل قد يقع أن تعيش الدلالة السابقة للكلمة مع الدلالة الحديثة لها فتستمران في حياتهما لسنين بل لقرون، مثلُ كلمة "الرهيب" إذ تعني في الأصل ما يُخاف منه وكذلك تعني الجميل والخلاب، فتعيش هاتين الدلالتين معا، ومثل كلمة "السليم" حيث تطلق على المعافى من المرض وعلى اللديغ تفاؤلا بسلامته وصحته. ومن ثم إن المراد بالتطوّر الدلاليّ هو حدوث التغيّر في دلالة الكلمة، سواء أفضى هذا التغيّر إلى اندثار الدلالة القديمة وتربّع الدلالة الجديدة على العرش مثل كلمة القطار أم إلى أن تعيش الدلالتان معا وتستمران في حياتهما مثل كلمتَيْ "السليم" و"الرهيب".

أما الصورة الثانية كما قلنا وهي إضافة كلمة جديدة إلى مدلول قديم سواء كانت الكلمة الحديثة مستعارة أم غير مستعارة فلم تحْظَ بقدرٍ كاف من الاهتمام. للاستقراض أو الإستعارة يد طولى في هذا الضرب من التطوّر الدلاليّ. هذا الإستقراض قد يكون لحاجة مبرمة مما لايمتّ إلى موضوع المقالة الحاليّة بصلة، وقد يكون لمجرد الإعجاب باللفظ، على نحو ألفاظ "الاستبرق" و"الديباج" و"السندس" الفارسيّة، حيث عاشت وتعيش إلى جانب لفظ "الحرير" العربيّ.

Archive of SID

www.SID.ir

ينقسم التطوّر الدلاليّ إلى قسمين: أحدهما تطوّر لاشعوريّ يتمّ في كلّ اللغات والبيئات ولا يُفطَن إليه إلا لمن يقوم بمقارنة دلاليّة بين مختلف عصور اللّغة، ليقف على ما حصل عليها من تغيير وتطوّر. وثانيهما: التطوّر المقصود الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام كالأدباء والشعراء أو تقوم به المجامع اللغويّة بوضع مصطلحات جديدة (ينظر: أنيس، ١٩٨٤: ١٣٤؛ مختار عمر، ١٩٩٨: ٢٤٢).

لايهمّنا في هذه الدراسة التطوّر المقصود أو الذي يقوم به مهرة الناس أو المجامع العلميّة لوضع الكلمات أو إضفاء المداليل الجديدة عليها، بل يهمّنا القسم الأول من التطور- أي: التطور اللاشعوريّ الذي لايتمّ الحصول عليه إلا عند مقارنة دلالات الكلمة في مختلف العصور. يحدث هذا الضرب من التطور بفعل عوامل كثيرة كالعوامل اللغويّة والتاريخيّة والسياسيّة والنفسيّة... إلا أننا أغْضَضْنَا الطرف عن كلٍّ العوامل، وقصرنا الحديث على الأسباب النفسيّة فحسب، لكي نتمكّن من استيعابها ودراستها بالتعمّق ولكي لايغيب النقاط عن مرأى الباحثين.

المشاعر النفسيّة والتطوّر الدلالي

المشاعر النفسيّة هي تلك المشاعر اللّاشعورية من حياة الإنسان النفسيّة كالطوطم والتابو والتي تؤثّر على حياته ولغته بكافّة مظاهرهما (فرويد، ١٩٨٣: ٤٩) ومن ثمَّ هي تلك العوامل الداخليّة التي تؤثّر في وجدان الناس وعقلياتهم، وتدفع بهم في عالم اللّغة إلى أن يعزفوا عن استعمال بعض الكلمات نظرا لما ترتبط به في أذهانهم من معاني القبح، أو الخوف، أو المخالفة للحياء العام وغيرها، ومن ثم ينصرفون عنها إلى ألفاظ أخرى تكون لها معاني الألفاظ المعزوف عنها.

ففي كل لغة من اللّغات هناك كلمات مبتذلة لاتُستعمل إلا في قالب من الغموض لدلالتها المشمئزة أو غير المحبّبة لدى الأوساط، وهذا في الحقيقة أمر نسبيّ يختلف من مجتمع إلى مجتمع ومن وسط إلى وسط ومن زمان إلى زمان. قد تبتذل بعض الألفاظ لدلالتها المبتذلة أو المنحطّة لدى بعض المجتمعات، بينما لاتكون هي بنفس الإبتذال في مجتمع آخر، فالذي يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة، قبيحة أو غير قبيحة إنما هو العرف. والكاتبان لم يبحثا عن سبب هذا الخلاف، لأنه لايمتّ إلى البحث الحالي بصلة، وأما فيما يخصّ أثر الجوانب النفسيّة على التطوّر الدلاليّ كإحدى أهم أسباب تطوّر الألفاظ، فاستفضنا فيه الحديث، وبيّننا مظاهرها المختلفة وهي كالتالي:

Archive of SID

www.SID.ir

اللّامساس (حظر الاستعمال أو التابو[1]):

يطلق اللّامساس أو حظر الاستعمال أو التابو على كل ما هو مقدّس، أو ملعون، يحرم لمسه، أو الإقتراب منه، من الأشياء وأسمائها، بسبب الإعتقاد الخرافيّ في سحر الكلمة، فتهجر بعض الألفاظ على حدّ تعبير إبراهيم أنيس، و«يستعاض عنها بغيرها، لتكون أخفى دلالة على الأشياء التي لايريد المتكلّم التعبير عنها بصراحة» (أنيس، ١٩٨٤: ١٣٨). يتشعّب معنى التابو عند فرويد إلى اتجاهين متعاكسين، إتّجاه مقدس مبارك، واتّجاه رهيب خطير محظور (فرويد، ١٩٨٣: ٤١). فإذا ما «اصطدمت كلمة ما بحظر الإستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلّت محلّها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى. يعتبر تحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللّامساس نتيجة طبيعيّة للخرافات اللغويّة وأثرا من آثار الإعتقاد في سحر الكلمة» (استيفن، دون تا: ١٧٧ و١٩٣)، وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية، فهي معروفة في كل البيئات وفي كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة.

إن المصطلح البديل يكون له معنى قديم في معظم الأوقات، مما يؤدي إلى وقوع التلطّف في الكلمة، وهو في حقيقته إبدال الكلمة الحادّة، بكلمة أقلُّ حدَّة. والحق أن مقياس الحكم بالقبح والشناعة في كثير من الأمور يختلف من جيل إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع ومن مكان إلى آخر، وفقا لما فيها من تقاليد وأنماط السلوك والدين. «إن المحظورات التابويّة تفتقر إلى أيِّ تعليل، ولايُعرَف لها مصدر، هي غير مفهومة بالنّسبة لنا، في حين تبدو بديهية لمن يقع تحت سلطانها» (فرويد، ١٩٨٣: ٤٢). للقدماء مباحث في هذا الباب، فقد وضع الثعالبي كتابا صغيراً في الكناية والتعريض مشيرا في مقدمته إلى الكنايات "عمّا يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطيّر منه أو يُصان عنه، بألفاظ مقبولة تؤدّي المعنى... فيحصل المراد ويلوح النجاح، مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولايأنس به الطبع، إلى ما يقوم مقامه، وينوب منابه..." (الثعالبي، ١٩٩٥: ١٠).

يُدرج ضمن عامل اللّامساس الوجوه التي تأتي في التالي:

التبرك والتيمن:

يذكر أولمن في كتابه "دور الكلمة في اللّغة" مثالا لهذا العامل، وهو كلمة "الله" في الديانة اليهوديّة في اللّغة العبريّة، بحيث أن اسم الله جل وعلا، يُكتَب ولكنه لايُنطق تقديسا له

1. Taboo

Archive of SID

www.SID.ir

وتكريما، وإنما الذي يُنطق لفظ آخر وهو سيدي، ثم يقول: و" لقد انتشرت هذه العادة في ديانات مختلفة منها البراهمة واليهوديّة والإسلام" (استيفن، دون تا: ١٧٤). والحق أن ذلك ليس ملحوظا في دين الإسلام، بل إنَّ في كثير من المواضع يتكرّر اسم الله أو الأسماء المشابهة للتذّذ والتبرّك على نحو ما ورد أمثلتها في كتب البلاغة كرارا وتكرارا، ولاندرى كيف اتّخذ مترجم الكتاب كمال بشر هذا الموقف صحيحا مقبولاً، حيث قال: "إن لفظ الله في اللّغة العبريّة يكتب ولاينطق تقديسا له وإنما الذي ينطق لفظ آخر وهو سيّديّ، ثم خلص إلى القول: لعلّ ما يفسر هذا الإتجاه نفسه في الإسلام إجماع النحاة على حذف الفاعل وبناء الفعل المجهول تعظيما له بصون اسمه عن لسانك، كخالق الخنزير" (انظر: أولمن، دون تا: ١٧٤) . نعم فقد حدث ذلك في المثال الذي جاء به كمال بشر، غير أن ماجاء به المعلِّق لم يحمله على محمله الصحيح، وذلك لأن كلمة الله جل شأنه أعظم وأكبر من أن تُذكر بعد الخنزير لانحطاط مفهوم الخنزير، وعدم الذكر ليس من أجل التيمّن أو التبرّك، بل على العكس تماما، حيث هناك تكرار ملحوظ في اسم الله في القرآن الكريم والاحايث الشريفة وحتى الكلام المعتاد بين الناس إذا تعلّق الأمر بالتيمّن أو التبرّك، وذلك لأنه ليس هناك سبب يُحتَرَز به اللسان عن ذكر الرَّب في الدين الإسلاميّ، وبناء على ذلك لم يحصل الكاتبان ـ بحد بحثهم في الكتب ـ على كلمة كانت قد تطوّرت دلالتها بفعل التبرّك التابويّ.

الخوف والهيبة:

وهو يشتمل على أوجه كثيرة، قد يكون الخوف من الحسد والعين، أو من الشيء الذي يتّصف كونه شريرا، وقد يكون الخوف من هيبة الموت أو الحيوان وما إلى ذلك. يشيع عند العرب الإعتقاد في السحر والإصابة بالعين، وتقوم الكلمة بدور مهمّ في هذا الإعتقاد، فلا يصفون الأشياء بالحسن لئلّا تصيبها عين الحسود، وعن طريق هذا العامل فسّر العلماء وقوع بعض كلمات الأضداد، منه مثل اطلاقهم كلمة "الشوهاء" لوصف امرأة رائعة جملية، وهي في الأصل امرأة قبيحة (ابن منظور، دون تا: ج١٣: ٥٠٨، باب شوه).

لا يصرّح العرب بكثير من الكلمات والألفاظ التي تدلّ على الموت والأمراض المستعصية المهلكة، مما يثير مشاعر الخوف والهلع في نفوسهم، فينفرون من سماعها. فهم "لايصرّحون في بعض الأحايين بكلمة "السرطان" خوفا من ذكرها صراحة، بل يستعيضون عنها بلفظة "الخبيث"، وكلّ ذلك يدخل في نطاق ما يسمّى بالمحظور اللغويّ الذي يحرم

Archive of SID

www.SID.ir

استخدام بعض الألفاظ إيمانا بقدرتها السحريّة على الأذى في حال نطاقها" (ينظر: عبد الجليل، ٢٠٠١: ٧١).

ولهذا السبب كَثُرَما تجد هذه الألفاظ معرّضة للتغيير والتطوّر، فمنها تندثر ولاتبقى لها قائمة ومنها تندثر وتنزوي وتصبح نادر الاستعمال، وفي كلتيْ الحالتين يستعيض أبناء المجتمع عنها بكلمات أخرى معبّرة عن نفس الدلالات في رفق وأناة، وفي لفّافة من القول أقلُّ وضوحا ليحدَّ من تأثيرها غير المحبَّب في الأذهان. وانظر كذلك إلى "الموت" بحيث لاتُستَخدم في كثيرٍ من المجالات ويُستعَاض عنها بكلمة الذهاب أو الوفاة والرحلة أو فاضت روحه وانتهى وغيرها من الكلمات. ومثال آخر بهذا الصدد كلمة "الهلاك" بمعنى الموت، والكلمة "الهلاك" كانت في أصلها تعني الذهاب، واستخدمت بمعنى الموت تخفيفا لشدة المصاب، ولكنها اليوم تحمل ما يحمله الموت من الدلالات والإيحاءات السلبيّة المثيرة لمشاعر الخوف والخزن (أبوشريفة وآخرون، ١٩٨٩: ٦٦-٦٨).

والخوف من المفهوم السحريّ للكلمات لم ينحصر على الألفاظ المذكورة فحسب، بل اشتمل على أسماء الجانِّ والشياطين وبعض الحيوانات كابن عرس، والذئب والثعبان والحية و...، وحلَّت محلَّ تلك الألفاظ والكلمات ألفاظٌ خالية من فكر الضرر والأذى. والملحوظة الجديرة بالإهتمام أن هذا النوع من التطوّر الدلاليّ مشترك في عدد كبير من لغات العالم، وليست بحال من الأحوال حكرا على اللّغة العربيّة، حيث هناك بعض أسماء الحيوانات خضع لحظر الإستعمال في جمع من اللغات. يذكر أولمن أن حيوان "ابن عرس" يحمل دلالات مشؤومة عند كثير من أبناء مختلف اللغات، مما حدا بأبنائها أن يستعيروا ألفاظ أو كلمات أخرى بدل التصريح باسم هذا الحيوان الصريح، فمثلا الفرنسيّون يسمّونه بـ" الجمال الصغير" فرارا من شؤم الكلمة والتصريح بها والألمان يدعونه بـ "الحيوان الصغير الجميل" وهو عند الإيطاليين والبرتغاليين "السيدة الصغيرة " وعند الدنماركيين "الجميل" (أولمن، دون تا: ١٧٦)، كما لوحظ ذلك في اللّغة العربيّة كذلك، إذ أن جماعة من العرب يأبى أن يسمي هذا الحيوان "ابن عرس وجمعه بنات عرس" باسمه، وهي كلمة محظورة الإستعمال لدى بعض المناطق والأماكن العربيّة وذلك بتأثير عامل اللّامساس، حيث يشار اليها بـ "المخيفة" في بعض البلاد وبـ "أم أحمد" في بعض الآخر (أولمن، دون تا: ١٧٦: تعليق المترجم (كمال بشر) على رأي الكاتب). والحقيقة أن أحد أهمّ أسباب كثرة المترادفات في اللّغة العربية في بعض المجالات كالموت وأسماء الحيوانات الشرسة والشيطان... إلخ تكمن في ذلك، أي: في أن

Archive of SID

www.SID.ir

يُخفَف صدمتها ووقعها على الناس وعلى آذانهم. ومن المعروف أننا نلجأ دائما إلى العبارات الرقيقة والتلميحات اللطيفة إذا تعلّق الأمر بالأخبار السيئة وخاصة أخبار المرض والموت والإصطدام والجانّ وما إلى ذلك من الأخبار غير السارّة. يقول فهمي الحجازي إن التابو اللغويّ يجعل بعض الكلمات موضع حرج، فلاتذكر في الحديث العاديّ، فكأنّ النطق باسم الحيوان المفترس أو المرض استدعاء لهما، يتجنّبهما الإنسان خوفا من بطشهما، وقد أدّت هذه الظاهرة إلى تنوُّعٍ كبير في أسماء الحيوان المخيفة للإنسان في كل بيئة لغويّة، وما أكثر تسميّات الأسد في العربيّة، وما أكثر تسميات الثعابين في لغات كثيرة، وهي تسميات نشأت ـ على ما يلوح ـ لتكون صفات لهذا الحيوان أو ذاك، ثم استقرّت على ذلك (فهمي الحجازي، دون تا: ١٣٩). فكلمة الأسد في اللّغة العربيّة على سبيل المثال لها أكثر من عشرين مترادفا، كالحيدر، والغضنفر والقسورة واللبوءة وفدوكس وهيصر وما إلى ذلك من الأسماء الأخرى، وهي في معظمها صفات هذا الحيوان المفترس تحوّلت فيما بعد إلى أسماء له، فأحد أسباب تلك الكثرة المفرطة في أسماء هذا الحيوان تكمن في ذلك الخوف أو الفزع الذي يُثار بمجرد سماع اسمه، فاستعاض أبناء اللّغة العربيّة بكلمات أخَر أكثر تلطيفا وأقلّ إثارة لمشاعر الخوف. وجدير بالذكر أن تلك الكثرة في توظيف الأسماء لاتُفَسَّر بمجرد المشاعر النفسيّة، بل لها أسباب كثيرة منها اختلاف لهجات القبائل والوضع...

قبح دلالة الألفاظ عند المجتمع:

أحيانا تبتذل بعض الألفاظ ويمجّها المجتمع، ويعافها الذوق، يكثر ذلك في الألفاظ التي تعبّر عن الحاجات الإنسانيّة والغرائز، والألفاظ التي ترتبط بالقذارة والدنس وتلك التي تشير إلى التبوّل والتبرّز وإلى العمليّة الجنسيّة وأعضاء التناسل إلخ، فلا يكاد اللفظ منها يشيع حتى يمجّه الذوق الإجتماعي وتأباه الآداب العامّة، فيستعاض عنه بآخر من اللّغة نفسها، أو من لغة أجنبيّة، ولذلك كثيرا ما يكنى عن تلك المفاهيم بكنايات معيّنة، غير أن كثرة استعمال تلك الكنايات يؤدّي إلى شيوعها، ثم إلى ابتذالها بعد أن مرَّ من شيوعها زمن أو أزمان حتى تصبح أشدّ من التصريح، فتهجر تلك الألفاظ وتندثر من الاستعمال كذلك، وتحلّ محلّها ألفاظ جديدة أكثر تعمية عن المقصود، وهكذا دواليك. وهذا هو الذي حدث في العربية في أسماء متعلقة بالحمامات وأماكن قضاء الحاجة، إذ كثرت هذه الأسماء كثرة مفرطة في وهلة زمنيّة غير بعيدة، وشاعت ألفاظ كـ: "المرحاض" و"بيت الأدب" و"الحمام"

Archive of SID

www.SID.ir

و"دورة المياه" و"الكنيف" و"الكرسي" و"المستراح" و"بيت الراحة" وغيرها وهي لاتزال حيَّة في البلاد العربية، وهذه الألفاظ أتت من اللّغة نفسها، كما هناك ألفاظ أجنبيّة استحوذت على الساحة في هذا المجال كـ: "الكابينة" و"التواليت" و"الدبليوسي" (W.C) و"الششمة" (من كلمة جشمه الفارسية)، والملاحظ أن هذه الظاهرة شملت الأفعال والجمل كذلك. انظر إلى قول الناس في اللهجات فيما يخص عمليّة التبوّل أو التبرّز: يشخ، أو يعمل زيّ الناس ويروح الحمام، ويعمل كابينة، ويروح التواليت و... (ينظر: أنيس، ١٩٨٤: ١٤٢؛ عبدالتواب، ١٩٩٠: ٢٠٢).

إن اللغة العربيّة بعد الإسلام تلمّست أحسن الحيل للتعبير عن العورات وعما يتعلّق بالشؤون الجنسيّة ومواضعها، ومن أمثلتها استعمال كلمة "الصدر" بمعنى الثديين في المرأة، إذ أنه من الواضح تماما أن الصدر لايعني الثدي وإنما استعير الكلمة بمعنى الثدي، لمجاورتها له. ولقد كان بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف أسوة حسنة للمقتدي بهما، فقد كنّى القرآن عن العلاقة الجنسيّة مثلا بألفاظ كريمة أقرب إلى الحشمة والأدب للتعبير عن هذه الشؤون، منها:

الملامسة في قوله جلّ وعلا: ﴿**أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ (المائدة/٦).

والمسّ في قوله: ﴿**وَالَّذِيْنَ يُظَاهِرُوْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوْا فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا**﴾ (المجادلة/٤).

والدُّخول في قوله تعالى: ﴿**مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ**﴾ (النساء/٢٣).

والرَفَث في قوله جلّ شأنه: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُم**﴾ (البقرة/١٨٧).

والمباشرة في قوله جل جلاله: ﴿**فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ... وَلَاتُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ**﴾ (البقرة/١٨٧).

والإفضاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْض**﴾ (النساء/٢١).

وكذلك كلمة الغائط التي وردت في القرآن الكريم دلالة على قضاء الحاجة، فقد كانت في أصل وضعها تعني الغياب والإختفاء عن أعين الناس، كما ورد في "تاج العروس" وغيرها من المعاجم المعتمدة، إلا أن القرآن الكريم قد استخدم اللّفظة بمعنى قضاء الحاجة في قوله جل وعلا: ﴿**أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ**﴾ (النساء/٤٣)، تلمسا للحشمة والأدب. يقول صاحب تاج العروس: وكان الرجل إذا مسَّتْه الحاجة «إرتاد غائطا من الأرض يغيب فيه عن أعين

Archive of SID

www.SID.ir

الناس» (تاج العروس، مادة غوط، ج١٩: ٥٢٢)، ثم أطلق المكان على الفعل نفسه كما لاحظتم.

جدير بالذكر أن هذه المسألة قد نالت اهتمام الدارسين والعلماء الأقدمين، ها هو قول الثعالبيّ في كتابه الشهير "فقه اللّغة وسرّ العربيّة" يقول في الكناية عمّا يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه: هي من سنن العرب وفي القرآن: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ**﴾ (فصلت/٢١) أي: فروجهم، وقال تعالى: ﴿**أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنَ الغَائِطِ**﴾ (النساء/٤٣ والمائدة/٦)، فكنّى عن الحدث، وقال: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شِئْتُمْ**﴾ (البقره/٢٢٣) وقال عزّ وجلّ: ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾ (الأعراف/١٨٩) فكنّى عن الجماع، والله كريم يكنّي (الثعالبي، ٢٠٠٦: ٣٠٠). وقال أبو حيان التوحيدي في كلام بارع له عندما سئل عن كثرة الكلمات الدالّة على مفهوم الفرج في العربيّة: «ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها؟ فقال: لما رأوا الشيء قبيحا جعلوا يكنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حدّ الإسم الأول فينتقلون إلى كناية أخرى، فإذا اتّسعت أيضا رأوا فيها من القبح مثل ما كنوا عنه من أجله، وعلى هذا، فكثرت الكنايات وليس غرضهم تكثيرُها» (التوحيدي، ١٩٩٢: ٣٨٧).

قلما تجد اليوم عالِما دينيّا لم يعرف المراد من كلمة "التغشي" بأنّه هو الجماع، بينما التغشي في الأصل هو وضع الغطاء على الشيء وستره، فتطوّر معناها من الستر والغطاء إلى الجماع كذلك وهذا هو التطوّر بعينه، حيث أن دلالة الكلمة فضلا عن الغطاء والستر شملت الجماع كذلك. والحكاية هي عينها فيما يخصّ كلمة "المباشرة"، إذ هي تعني المبادرة إلى شيء واتّسعت دائرتها لتشمل الجماع كذلك في النصّ القرآنيّ والنصوص الفقهيّة الدينيّة، فيتّضح من الأمثلة أن دلالة الكلمتين السابقة لم تُلْغِ، بل بقيت على حالها وعاشت مع الدلالة الحديثة والحال أن الدلالة السابقة لكلمة الغائط والتي وردت في القرآن الكريم في قوله جل جلاله: ﴿**أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ**﴾ ألغيت، فاليوم لايعرف أحد بأنّ الغائط هو المشرف أو المرتفع من الأرض، فكان الرجل يذهب إليها ليغب عن أعين الناس ليقضي حاجته، فلا يفهمون من الكلمة إلا قضاء الحاجة فحسب، فالدلالة الحديثة في هذه الحالة حلّت محلّ الدلالة السابقة تماما.

التفاؤل:

لا ينبغي للدراس في شؤون تطوّر دلالات الألفاظ أن يغضّ طرفه عن دور هذا المظهر في التطوّر الدلالي في اللّغة العربيّة، حيث إن هناك ألفاظ قد تغيّرت معانيها ودلالاتها بمجرد

Archive of SID

www.SID.ir

التفاؤل. وقد لمح اللّغويون القدماء إلى أثر ذلك على اللغة. وهو بلاشك ـ كما ذهب إليه كثير من العلماء قديما وحديثا ـ من الأسباب المؤدّية إلى تكوين ظاهرة الأضداد في اللّغة العربيّة (عبدالتواب، ١٩٩٩: ٣٤٥). وأمثلته كثيرة في اللّغة العربيّة، لنأخذ بعض منها إيضاحا للموضوع.

فقد أطلق العرب على اللديغ اسم "السليم" أو على الصحراء المهلكة الضالّة اسم "المفازة" أو على الأعشى أو الأعور أو الذي لايتمتّع بقوّة البصر أو يعاني من ضعفه، اسم "أبي البصير" وما إلى ذلك من مختلف الكلمات التي استعملت في اللّغة العربيّة. فياترى ما هو السبب في هذه التسمية العكسيّة تماما؟ أما تظن أن تسمية السليم على اللديغ تكمن في تفاؤل المتكلم بسلامة المريض وبرءه ومعافاته من المرض؟ كَثُرما ضلَّ الناس في الصحاري المهلكة الحارّة التى قد تبلغ درجة حرارتها خمسين وأكثر، فماتوا ولم يرجعوا، فسمّى العرب هذه الصحاري المهلكة بالمفازة أو المفازات تفاؤلا بالفوز والسلامة والنجاح لمن يدخل فيها. والقضيّة هي نفسها في إطلاق "أبي البيضاء" على الأحباش السود و"العافية" على النار تفاؤلا بالصحة والسلامة و"المبروكة" على الحمى تفاؤلا بالبركة والسلامة و"الكريمة" على العين العوراء تفاؤلا بالسلامة والشفاء و"المعافى" على المريض تفاؤلا بالسلامة والمعافاة.

وكذلك كلمة "اليسرى" تعني في أصلها تلك اليد التي تتسهّل العمل، غيرأنها تأتي بمعنى اليد الشمال أو العسرى، وكما لايخفى عليكم هي أقلّ سهولة وتيسّرا للإستفادة منها قياسا باليمنى (المبارك، دون تا: ٢١٦). وقد أشار ابن قتيبة في"تأويل مشكل القرآن" إلى التفاؤل ودوره في المعنى، قائلا: «ومن المقلوب أن يوصف الشيء بضدّ صفته للتطيُّر والتفاؤل، كقولهم للديغ: سليم، تطيُّرا من السقم، وتفاؤلاً بالسلامة، وللعطشان ناهل، أي سينهل، يعنون: يروي، وللفلاة مفازة، أي منجاة، وهي مهلكة» (ابن قتيبة، ١٩٧٣: ١٨٥). والحقيقة أن استخدام أمثال هذه الكلمات في معانيها الطارئة أمر متعلّق بسياقات التخاطّب أكثر من تعلّقه باطّراد الدلالة، أي: أن المعاني الأصلية لتلك الكلمات هي معانيها اللغوية المطّردة، وأما ما عداها من المعاني كالمعاني التي لاحظناها لسبب ظهور أغراض نفسيّة أو التعامل مع الناس، فذلك خارج عن الدّلالات المطّردة، غير أنها بمرّ الزمان تؤثّر على الدّلالة الأصليّة وتتلبّس بالدّلالة الثانويّة غير المطّردة، لدرجة تصبح الثانية كأنّها هي الأولى، على غرار ما لاحظنا عن كلمة المفازة أو الهلاك وغيرهما.

Archive of SID

www.SID.ir

المبالغة:

لا تحدث المبالغة إلا إذا شعر الإنسان أن الألفاظ العاديّة لاتفي بالتعبير عن مكنونات الضمير وعن انفعالاته الباطنيّة، فيعمد إلى استعمال الألفاظ ذات المبالغة للتعبير عن جمال الأشياء، كلفظ "الرهيب" عند مشاهدة منظر جميل أو شيء مقتدر، فهو في الأساس يعني المخيف ولكنّه يستعمل اليوم في بعض الأحايين بمعنى الجميل في قاموس الناس وعند التحاور وبمعنى الشيء المقتدر كذلك، قد يؤدّي ذلك بمرّ الزمن إلى أن يتسلّل هذه الدّلالة الجديدة في جوف المعاجم، لتجد من معاني الرهيب الجميلَ والخلّاب والمقتدر.

قد مرّت عليكم وعلينا تجربة مشاهدة مباراة كرة القدم في التلفاز، فحالما يسجل لاعب هدفا بضربة قوية يعبّر المعلّق الرياضيّ عن ضربته تلك بـ"الصاروخ" مثلا، فهذه التعابير ومثلها تنبع عن مصدر نفسي، كأن المقدِّم يرى أن الألفاظ المعتادة لاتفي بالمراد، بل يجب استعمال الصاروخ بدل غيرها من الألفاظ. ومن ذلك أيضا استعمال الألفاظ الدّالة على الخوف والرعب للتعبير عن جمال الأشياء، من ذلك: "رائع" بمعنى الجميل، وهو مشتق في أصلها من الروع وهو الخوف، ومنها كلمة "الهولة" بمعنى المرأة الجميلة الغانية، حيث تأتي الكلمة في أصلها من الهول وهو الخوف. يقول صاحب تاج العروس: «الهولة، المرأة، تهول الناظر بحسنها وجمالها وحليها ولباسها» (زبيدي، دون تا، ج٣١: ١٦٩).

ومثال آخر بهذا الصدد استعمال كلمة "القتل" لمن يهدّدك، أو تهدّده، حيث تخاطبه والله أقتلنك. هذا الخطاب موجه إلى السامع دون أن يصدر منك فعل القتل والإماتة، فالقتل في السياق المذكور انحصر دلالته على الضرب دون الموت، وعامل التهديد والمبالغة الكلامية هو الذي ألبس على الكلمة هذه الدّلالة الجديدة غير المطّردة.

الإعجاب بالألفاظ الجديدة: المستعارة من اللّغات الأجنبيّة كالإنكليزيّة والفارسيّة و... إلخ. سبق أن أشرنا أن مفردات اللّغة هي أهم ناحية يظهر فيها التطوّر اللغويّ، وقد يحدث هذا التطوّر بفعل التبادل بين اللّغات، بمعنى أن تقتبس بعض اللغات من الأخرى وهذا لامناص منه في مختلف اللّغات، وقد تذهب بعض منها بعيدا في هذا السبيل، فتقتبس قسما كبيرا من مفرداتها من غيرها، كما فعلت التركية مع الفارسيّة والعربيّة، والسريانيّة مع اليونانيّة، والفارسيّة مع العربية" (وافي، ٢٠٠٤: ٢٥٣). وهذا الأمر في الحقيقة قد يعود إلى مسألة الحاجة أو إلى الإعجاب باللفظ المستعار أوغيرها من الأسباب. فالذي يهمُّنا في هذه

Archive of SID

www.SID.ir

الدراسة هو الإقتراض لمجرد الإعجاب، لأنه ينبثق عن جذور نفسيّة. فقد عقد ابن خلدون لهذه الظاهرة في مقدمته فصلاً خاصّا معنونا بـ: (وَلَعُ المغلوب بالاقتداء بالغالب في مأكله ومشربه وملبسه ولغته...) وقد أشار فيه إلى ما يقتبسه المغلوب من الغالب في مختلف المظاهر (ابن خلدون، ٢٠٠٤: ٢٨٣-٢٨٤).

فاستعارة اللفظ الأجنبي رغم وجود نظير أصيل له في اللغة يؤدي إلى تطوّر في دلالة اللفظ الأصيل وإلى تكوين ظاهرة الترادف. من ذلك ما ورد في اللّغة العربيّة القديمة من بعض الألفاظ الفارسيّة التي عاشت إلى جانب الألفاظ العربيّة الأصليّة، وهي استمرت وتستمرّ في حياتها إلى أيامنا الراهنة. انظر مثلا إلى كلمة "الحرير" في اللّغة العربيّة وهي معروفة للجميع، غير أن العرب ومنذ العصر الجاهلي أعارَتْ لهذا المعنى كلمات"السندس" و"الإستبرق" و"الديباج" الفارسية، وهي الآن تعيش مع كلمة الحرير كما عاشت في القرون الغابرة، وقد دخلت في القرآن الكريم في غير موضع، منه قوله جلّ جلاله: ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَاسْتَبْرَقٌ**﴾ (الإنسان/٢١).

والديباج في اللّغة الفارسيّة تعني قماش مزخرف من الحرير، وهي مشتقة من كلمة (Depak) البهلويّة (ينظر: آذرنوش، ١٣٧٤: ١٣٤)، أما السندس نوع من القماش الكتانيّ أطلق فيما بعد على الأقمشة الحريريّة، ولاتستبعد أن تكون الكلمة يونانيّة كذلك (آذرنوش، ١٣٧٤: ١٣٦). والسندس عند المفسّرين هو الحرير الرقيق الناعم والإستبرق هو الحرير الغليظ الذي يُلبَس من فوق الملابس وفيه بريق (ينظر: ابن كثير، ١٩٩٩، ج٨: ٢٩٣). فكما هو معلوم أن اللّفظة العربيّة "الحرير" أصبحت هي الشاملة ولم تكن بهذا الشمول من قبلُ والإستبرق والديباج والسندس هي المشمولة التي تندرج ضمن الحرير، بعد أن دخلت في اللّغة العربيّة، وأصبحت ترادف الحرير في بعض دلالاتها. وكذلك من أمثلتها ما نجده اليوم من كثرة استعمال الألفاظ الأجنبية للآلات والمخترعات وفي مجال الطب والصناعة والهندسة رغم وجود نظير لها في العربية، مثل كلمات: "كامبيوتر" ولها بالعربيّة معادل الحاسوب، و"البنك" ومعادلها بالعربيّة المصرف، و"لب تاب" ومعادلها الحاسوب اليدوي، وغيرها من الكلمات، والملاحظ أن هذا النوع من التطوّر ليس لمجرد الإعجاب فحسب، بل قد تتطوّر مداليل الكلمات بفعل الحاجة، أو السلطة أو الأسباب السياسيّة والإقتصاديّة كذلك. قد يؤدّي هذا الضرب من الاستقراض إلى انزواء الكلمة الأصيلة أو إلى أن تعيش الكلمة الجديدة مع الكلمة القديمة على الأقل وتستمرّ في

Archive of SID

www.SID.ir

حياتها إلى جنبها، وهذا هو الضرب الثاني من التطوّر الدلاليّ الذي سبق أن أشرنا إليه عند أولمان، حيث قال: "التطوّر الدلاليّ إما أن يكون من إضافة مدلول جديد إلى كلمة قديمة وإما من إضافة كلمة جديدة إلى مدلول قديم" (ينظر: استيفن، دون تا: ١٥٢) وهذا ما أوضحناه في قسم التنظير. يجدر الإشارة أن الكلمة المستعارة إذا لم تكن لها نظيرة في اللّغة العربيّة، فهذا من باب الحاجة، وليس مما نحن بصدد القول فيه.

أما الآن وبعد أن انتيهنا من شرح المشاعر النفسيّة في تطوّر معاني مفردات اللغة، ينبغي أن نوضّح بأن التطوّر الدلاليّ الذي يلحق بالكلمات التي تطوّرت بفعل المشاعر النفسيّة يندرج ضمن أي مظهر من مظاهر التطوّر الدلاليّ؟ هل هي ضمن تعميم الدلالة أم تخصيصها؟ أم أنها تندرج في خانة انحطاط الدلالة أو رقيها؟ أم أنها من ضمن نقل الدلالات؟ فلنجب على هذه الإشكاليّة خلال السطور التالية إن شاء الله.

قبل الولوج في الإجابة مباشرة لابد من تسليط الضوء على المفاهيم الخمسة المذكورة ولو بالإيجاز والإقتضاب. اتساع الدلالة (أو تعميمها) هو الخروج من معنى خاص إلى معنى عام. فالكلمة في اتساع الدلالة يصبح عددها أكثر من السابق أو يصبح مجال استعمالها أوسع من قبل (عبدالتواب، ١٩٩٠: ١٩٤؛ مختار عمر، ١٩٩٨: ٢٤٣). ومن أمثلته في العربيّة كلمة "الوِرد"، بحيث كان بمعنى إتيان الماء فحسب، ثم صار إتيان كل شيء وردا، كذلك كلمة " السبب"، بحيث أن أصلها هو الحبل الذي يصعد به إلى النخل، ثم عمّت دلالتها لتشمل كل ما يتوسّل به لغيره.

ضيق الدلالة عكس الإتساع، إذ يحدث تضييق في مجال استخدام الدلالة الأولى والخروج بها من معنى عام إلى معنى خاص، وعلى حدّ تعبير رمضان عبد التواب: "التضييق هو الخروج من معنى عام إلى خاص" (عبدالتواب، ١٩٩٠: ١٩٤). ومن أمثلته كلمة "المأتم" حيث كانت تطلق على مجلس النساء حين اجتماعهن، سواء كان الإجتماع شرّا أم خيرا، غيرأن الآن يطلق على الإجتماع في الموت، سواء شارك فيه النساء أم الرجال، وكذلك كلمة "السبت" حيث كانت في مرحلة من مراحل اللغة العربيّة تعني الدهر بالمعنى العام، ثم خُصِّصَ في الإستعمال بأحد أيام الأسبوع.

أما في الإنحطاط الدلالي فتتحوّل معاني الكلمات مما كان عليها من نبل وشرف في نظر الجماعة إلى ما دون المرتبة السابقة التي كانت عليها هي، أو أصبح لها ارتباطات يزدريها

Archive of SID

www.SID.ir

المجتمع. من أمثلته لفظة "الكرسي" في القرآن الكريم في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم. و"الكرسي" على ما ذهب إليه العلماء والمفسرون مخلوق من مخلوقات الله، كالعرش، وهو أصغر من العرش بكثير وأكبر من السموات والأرضين بأضغاف. يقول البيهقي: «إن السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش» (البيهقي، دون تا: ٢٩٦). من الواضح تماما أن الكلمة كانت في العصر الإسلامي راقية، غيرأن دلالتها في عصرنا الراهن انحطّ، ليدلّ على كرسي المطبخ أو كرسي السفرة وغيرهما. ومثال آخر بهذا الصدد تركيب"طول اليد" في الحديث النبويّ الشريف بمعنى السخاء والجود، حين قالت نساء النبيّ صلوات الله وسلامه عليه له: أينا أسرع لحاقا بك يا رسول الله؟ فقال: "أطولكن يدا" (ابن سعد، ١٩٦٨، ج٨: ٥٥). ولكنه إذا وصف شخص في عصرنا الراهن بطول اليد لوُصف بالشر، إذ يعني السرقة.

والرقي عكس الإنحطاط، ويعرِّفه إبراهيم أنيس بأنها تقوية الدلالة ورفعتها (أنيس، ١٩٨٤: ١٥٨)، ومثاله كلمة "الرسول"،إذ كان بمعنى الشخص الذي يرسل في مهمّة ما، ثم انتقل من هذه الدلالة إلى دلالتها السامية التي نألفها الآن (ينظر: مختار عمر، ١٩٩٨: ٢٤٩).

أما نقل الدلالة (إنتقال الدلالة – تغيير مجال استعمال الكلمة) فيحدث إذا كان المعنيان "القديم والجديد" متساويين عددا ومرتبة، فدلالة اللفظ في انتقال الدلالة على حدّ تعبير محمد قدور «تتعادل مع دلالتها قبل الإنتقال، بمعنى أن المعنى الجديد هنا ليس بأخصّ من المعنى القديم ولا أعمّ منه، بل هو مساوٍ له تماما» (محمد قدور، ٢٠٠٨: ٣٩٢)، وأمثلته كثيرة يندرج ضمنها كافّة المجازات المرسلة بمختلف علاقاتها والإستعارات كذلك. ومثاله إطلاق كلمة "الذقن" بمعنى اللحية والذقن في الأصل موضع اللحية، ولكنها انتقلت دلالتها لتشمل اللحية وذلك لمجاورته بها وكذلك "الظعينة" إذ كانت تعني المرأة التي في الهودج وهي مرأة بالغة متزوجة، ثم اطلقت على البعير أو الراحلة الصالحة للأسفار والأحمال، ثم على الهودج نفسه وهو أداة توضع على ظهر الجمال والرواحل وتُحمل فيها النسوة.

يتضح للمتعّن في الدراسات الألسنية أن التطوّر الحادث بسبب الأسباب النفسيّة ليس من قبيل توسيع الدلالة ولامن تضييقها، لأن ملامح الكلمات المتطوّرة لم تعمّم ولم تخصّص، لأن الكلمة التي تسخدم في موضع قضاء الحاجة مثلا تساوي دلالتها مع الدلالة القديمة في كل شيء، إلا في أنها أكثر تلطيفا وقبولاً عند أبناء اللغة من الكلمة السابقة لها، فتصبح غير

Archive of SID

www.SID.ir

ممجوجة على الآذان وغير مستقبحة على القلوب والألباب، ويتّضح من هذا المقام أن الكلمة التي تُستخدم لقضاء الحاجة ـ لنأخذ كلمة الغائط مثلا ـ كانت لها دلالة أرفع وأعلى من التي تحوّلت عليها الآن، ذلك لأن الغائط في الأصل يعني مرتفع الأرض، فإذا كان الانسان يذهب لقضاء الحاجة إلى مكان مشرف ليغيب عن أعين الناس، تم اطلاق المكان على الفعل نفسه على نحو ما شاهدنا. ومن الواضح الجليّ أنّ اطلاق المكان على قضاء الحاجة كما أشرنا يندرج ضمن نقل الدلالة. زد على ذلك أن الكلمة "الغائط" تحوّلت من معنى غير وضيع "مرتفع الأرض" إلى معنى وضيع "قضاء الحاجة"، وهو بلاشك يندرج في خانة انحطاط الدلالة. بيد أن معظم الكلمات المتطوّرة بفعل المشاعر النفسيّة ليست بهذه الثنائية، أي أنها لاتنضوي ضمن انتقال الدلالة وانحطاطها في الوقت نفسه، بل هي في معظمها تنحطّ دلالتها فحسب، انظر مثلا إلى كلمة الهولة مثلا وهي وصف للمرأة الجميلة في الأصل، ولكنّها أطلقت على المرأة القبيحة خوفا من العين أو الحسد، ففي هذه الحالة أصبحت الكلمة التي كانت لها دلالة رفيعةٌ (دلالة الجميلة)، منحطةً وضيعةً (دلالة القبح) على نحو ما رأينا، وليس في المثال المذكور شيء من نقل الدلالة، الأمر الذي لاحظناه في كلمة الغائط.

النتائج

نظرا لما أوردناه خلال المقال حصلنا على النتائج التالية:

١. للّغة كيان وحياة وكأنها كائن حيّ ينمو ويتطوّر بفعل عديد من الأسباب، فكيان اللّغة ليس مستقلا أبدا، بل هو متأثّر بأسباب تاريخيّة واجتماعيّة وثقافيّة ونفسيّة ولغويّة إلخ، ولكل منها دوره على تطوّرها وحركيّتها وديناميّتها.

٢. للأسباب أو المشاعر النفسية يد طولى في حدوث التطوّر اللغويّ الدّلاليّ. تتمثّل تلك الأسباب في التفاؤل واللامساس (التيمّن، قبح الدلالة، الخوف من التصريح) والمبالغة والإعجاب بالألفاظ المستعارة أو الإقتراضيّة.

٣. يعدُّ اللّامساس أو التابو أهمّ الأسباب في حدوث التطوّر الدلاليّ الناجم عن المشاعر النفسية، إذ أن هناك ألفاظاً عديدة تحمل دلالات مكروهة يمجُّها الذوق الإنساني، وتأباها الأنفس كالألفاظ الدّالة على الخوف والفزع وعمليّة التبرّز والتبوّل

Archive of SID

www.SID.ir

ومتعلّقاتها وما إلى ذلك، فيلجأ أبناءُ اللُّغة إلى تبديلها بألفاظ أخرى، ذات دلالة يستحسنها الذوق ولم يأباها المجتمع اللغوي.

٤. قد تقوّى شدّة الحساسيّة ومخالفة المجتمع لبعض الكلمات إثر عامل اللّامساس درجة تجعل الكلمة الأصليّة المحظورة محرّمة الإستعمال تماما، ويغلب على دلالتها كلمة أخرى لمدّة زمنيّة، وهذه الثانية كذلك إذا بلغت فيها الحساسيّة درجة كبيرة يستعاض عنها بكلمة أخرى لتحلّ محلّها من جديد، وتستمرُّ العمليّة هذه حتى تنتشر كثير من الكلمات المرادفة حول دلالة واحدة، على نحو ما ذكرنا عن الألفاظ الدالّة على التبرّز والموت والشياطين وبعض الحيوانات.

٥. إن الدلالة الناجمة عن المشاعر النفسيّة يندرج ضمن انحطاط الدلالة في معظم الأحيان، وذلك لأن المعنى الحديث تنحط دلالتها مقارنة بدلالتها السابقة.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. آذرنوش، آذرتاش (١٣٧٤ش). *راههای نفوذ فارسي در فرهنگ زبان عرب جاهلي (همراه با واژههاي فارسي در شعر جاهلي)*. ط ٢، طهران: منشورات توس للنشر والتوزيع.

٢. ابن خلدون، عبدالرحمن (٢٠٠٤م). *مقدمة ابن خلدون*. دمشق: دار يعرب للنشر والتوزيع.

٣. ابن كثير، اسماعيل بن عمر (١٩٩٩م). *تفسير القرآن العظيم*. تحقيق سامي بن محمد السلامة، الطبعة الثانية، رقم المجلدات ٨، الناشر: دار طيبة.

٤. ابن قتيبة، ابومحمد عبدالله بن مسلم (١٩٧٣م). *تأويل مشكل القرآن*. تحقيق وشرح ونشر أحمد صقر، ط ٢، القاهرة: مكتبة دار التراث.

٥. أبوحيان التوحيدي، علي بن محمد (١٩٩٢م). *أخلاق الوزيرين*. تحقيق وتعليق الحواشي محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار صادر.

٦. أبوشريفة عبدالقادر، لايف حسين، غطاشة داوود (١٩٨٩م). *علم الدلالة والمعجم العربي*. عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع.

٧. أبو عبدالله البصري، محمد بن سعد (١٩٦٨م). *الطبقات الكبرى*. تحقيق إحسان عباس، ٨ ج، بيروت: دار صادر.

٨. العسكري، ابو هلال (١٩٩٦م). *كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء*. تحقيق عزة حسن، ط ٢، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

٩. أنيس، إبراهيم (١٩٨٤م). *دلالة الألفاظ*. ط ٥، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

١٠. أولمان، استيفن (دون تا). *دور الكلمة في اللغة*. ترجمة وتقديم وتعليق كمال بشر، مكتبة الشباب.

١١. بالمر، ف. ر. (١٩٩٥م). *علم الدلالة*. ترجمة صبري إبراهيم السيد، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

١٢. البيهقي، أحمد بن الحسين (دون تا). *الأسماء والصفات*. تحقيق عبدالله بن محمد الحاشدي، الجدة: مكتبة السوادي.

١٣. الثعالبي، أبومنصور (١٩٩٥م). *النهاية في الكتابة المعروف بالكناية والتعريض*. تحقيق فرج الحوار، تونس: دار المعارف.

Archive of SID

www.SID.ir

١٤. ـــــــــــــــ (٢٠٠٦م). *كتاب فقه اللغة وسرّ العربية*. تحقيق فائز محمد؛ مراجعة وفهرسة اميل يعقوب ومحمد الإسكندراني، بيروت: دار الكتاب العربي.

١٥. زبيدي، المرتضى (دون تا). *تاج العروس من جواهر القاموس*. تحقيق مجموعة من المحققين، ٤٠ ج، دار الهداية للنشر والتوزيع.

١٦. طاهري نيا، على باقر؛ محمودي، أبوبكر؛ رحماني، نعيم (١٤٣٨هـ). «إنسانية المعاني والألفاظ عند حازم القرطاجني». *مجلة اللغة العربية وآدابها*، السنة ١٢، العدد ٤، الشتاء، صص٦٧٥-٦٩٤.

١٧. عبدالتواب، رمضان (١٩٩٠م). *التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه*. ط ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٨. ـــــــــــــــ (١٩٩٩م). *فصول في فقه العربية*. ط ٦، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٩. فرويد، زيغموند (١٩٨٣م). *الطوطم والتابو بعض المطابقات في نفسية المتوحشين والعصابيين*. ترجمة عن الأصل الألماني بوعلي ياسين، مراجعه محمود كبير، دمشق: دار الحوار للنشر والتوزيع.

٢٠. فهمي الحجازي، محمود (دون تا). *مدخل إلى علم اللغة*. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

٢١. مبارك، محمد (دون تا). *فقه اللغة وخصائص العربية (دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد)*. ط ٢، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٢. محمد قدور، أحمد (٢٠٠٨م). *مبادئ اللسانيات*. ط ٢، دمشق: دار الفكر.

٢٣. محمد يونس علي، محمد (٢٠٠٧م). *المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية)*. ط ٢، بيروت: دار المدار الإسلامي.

٢٤. مختار عمر، أحمد (١٩٩٨م). *علم الدلالة*. ط ٥، القاهرة: عالم الكتب.

٢٥. منقور، عبدالجليل (٢٠٠١م). *علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي*. دمشق: اتحاد كتاب العرب.

٢٦. وافي، عبد الواحد (٢٠٠٤م). *علم اللغة*. ط ٩، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

Archive of SID

www.SID.ir